



تبعد أهمية بيان وشرح معنى "الواقعية" في التشريع الإسلامي بشكل صحيح من عدة وجوه أهمها: إظهار الفرق الواضح بين معنى الواقعية في التشريع الإسلامي، والواقعية في المفهوم الغربي، حتى لا يختلط الأمر على بعض الناس عند إطلاق صفة "الواقعية"، بسبب الجهل بخصائص التشريع الإسلامي، وهيمنة وشيوع المعنى الغربي للفظ "الواقعية".

كما أن هذا البيان ضروري للرد على كثير من المستشرقين وأعداء الدين، الذين يزعمون أن الشريعة الإسلامية اهتمت ببيان العقيدة والأخلاق وبيان أثرهما في تربية النفوس، دون أن يكون لهذا التشريع صلة بواقع الحياة، ليتوصلوا من خلال هذه المقدمة الفاسدة والزعم الباطل إلى نتيجة خاطئة مفادها: أن الشريعة الإسلامية مثالية لا يمكن تطبيقها على أرض الواقع، وغير صالحة لتنظيم وإدارة حياة الناس في كل زمان ومكان.

وقبل بيان معنى "الواقعية" في التشريع الإسلامي، لا بد من بيان معنى الواقعية "بالمفهوم الغربي"، والتي يمكن تعريفها بأنها: مذهب فكري مادي ملحد، يقتصر في تصويره الحياة والتعبير عنها على عالم المادة، ويرفض عالم الغيب والإيمان بالله(1).

لقد عمل دعاة الواقعية من خلال هذه النظرية والفكرة الشيطانية على ربط الإنسان الغربي بغرائزه وشهواته، وتوجيه نظره إلى التراب لا إلى السماء، فزادوا بذلك في ماديتها، وأمعنوا في إبعاده عن كل ما هو غيبي أو روحي، نظراً لكون الواقعية في الأصل كانت ردة فعل للمثالية التي تصدت لهيمنة الكنيسة على العالم الطبيعي دون أن تكسب المعركة.

والحقيقة أن الأسس التي قامت عليها الواقعية الغربية هي المذاهب الفلسفية المادية التي انتشرت هناك، مثل الفلسفة الوضعية التي انتشرت في فرنسا في النصف الأول من القرن التاسع عشر، والتي تقوم على رفض كل ما هو غيبي، وتقتصر على عالم المادة والحس، بالإضافة إلى الفلسفة التجريبية التي تلتقي مع الواقعية في رفض الغيب.

كما يمكن القول بأن الحقيقة المادية هي أساس الواقعية بالمفهوم الغربي، وأن الروح والعقل ظاهرة طارئة لها في مذهبهم، حتى زعم أرسطو: إن المبدأ الحق في كل الأشياء إنما هو الواقع، وإذا كان الواقع نفسه معروفا دائماً بالوضوح الكافي، يكاد لا يكون ثمة حاجة للصعود إلى علته(2).

وبعد هذه الخلاصة الوجيزة عن معنى الواقعية بالمفهوم الغربي، يمكن بيان وشرح معنى "الواقعية" في التشريع الإسلامي، والتي تختلف عن الواقعية الغربية اختلافاً جذرياً، ولا تتفق معها في أي شيء سوى حروف كتابة كل منها.

بداية لا بد من القول بأن الشريعة بتعاليمها ليست مجرد قيم نظرية مجردة حالمه، بل هي في أحكام تراعي واقع البشر وحاجاتهم وميولهم، وتأخذ بعين الاعتبار تباعن قدراتهم وملكاتهم، وما قد يطرأ على بعضهم من ظروف وأحوال غير طبيعية.

ويمكن معرفة معنى "الواقعية" في الإسلام من خلال ثلاثة محاور هي الكون والحياة والإنسان:

-1- أما بالنسبة لمحور الوجود: فالإسلام يعتبر الكون كله بمظاهره المختلفة حقيقة وواعداً، غير أنه لا يحصر الوجود بالملهم المادي فحسب، وإنما يؤكّد وجود العالم الروحي "الغيبى" بكل ذاته وأعيانه.

-2- وأما في محور الحياة: فإن "الواقعية" في الإسلام تراعي أن الحياة حياتين: الدنيا والآخرة، ومن خلال هذه النظرة "الواقعية" يسلم الإسلام من آفة إفراط طائفة بإنكارها الآخرة - كالدهرية - وإسرافهم في الأهواء والشهوات والمادية، قال تعالى: {وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاةُ الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا يَظُنُّونَ} الجاثية/24

آفة تفريط طائفة أخرى بإسرافها بنظرتها للحياة، من خلال رفض أي اعتبار للدنيا، واعتبارها شرعاً مستطيراً يجب الفرار منه - كالنصارى -، كما يؤكّد الإسلام بنظرته "الواقعية" للحياة أن عدم وقوع الآخرة في الحال لا ينفي وجودها، ولا يمنع تحقيقتها في المستقبل، قال تعالى: {إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أَخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى} طه/15.

-3- أما محور الإنسان: فإن واقعية الإسلام تظهر من نظرته إليه بأنه مكون من جوهرين اثنين: المادة والروح، فالطين يمثل الجانب المادي فيه، والروح تمثل الجانب المعنوي، وكل منهما له نوازع ومطالب لا بد من تلبيتها وإشباعها، حفاظاً على ذات الإنسان ونوعه، قال تعالى: {إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالقُ بَشَرًا مِنْ طِينٍ} (71) فإذا سوئته وتفحصت فيه من رُوحٍ فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِين} سورة ص/71-72.

وإنما الواقعية الصحيحة بالنسبة للإنسان - نبه إلى حقيقة هامة مفادها: أنه من المستحيل كبت نوازع جوهرى الإنسان - المادة والروح - ومصادر مطالبهما الضرورية، بل الواجب السعي إلى سد هذه الحاجات بطرق شريفة، تتناسب مع كرامة الإنسان وتميزه عن بقية المخلوقات التي تقاسمه الغرائز والشهوات(3).

وإذا انتقلنا للحديث عن خصائص "الواقعية" في الإسلام فيمكن القول بأن من أبرزها مراعاتها للفطرة الإنسانية، فالشريعة الإسلامية بواقعيتها التي سبق ذكرها، راعت فطرة الإنسان رعاية متميزة، وتعاملت معه باعتباره ضعيف التكوين والتركيب، محدود الطاقة، فلم تكله من العقائد إلا ما ينسجم مع حدود عقله وتصوراته، من خلال بيان حقائق لا تعقيد في فهمها وإدراكها، كما لم يكلفه من العبادات ما يفوق وسعه وقدرته، بالإضافة للاعتراف بحاجته للطعام والشراب والنكاف، ناهيك عن مراعاة ظروفه وأحواله التي قد تعترضه من مرض أو غير ذلك.

وأما في مجال التشريع فقد تجلت "الواقعية" في الإسلام من خلال تشريع عبادات محدودة، وشروط معدودة، لا يعجز المرء عن القيام بها، فالصلوة والصيام والزكاة والحج و... وغيرها من العبادات داخلة تحت قدرة الإنسان وطاقته من خلال الاستقراء، ويظهر ذلك من خلال قوله تعالى: {لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ} البقرة/286، وقوله تعالى: {فَأَتَّقُوا اللَّهَ مَا أَسْتَطَعْنُ...} التغابن/16.

وبالإضافة إلى ما سبق فإن تنوع التشريع الإسلامي في شعائره وشروطه، مراعاة واحتواء لحاجات البشر، التي تتعدد حاجاتهم، وتتنوع مطالبهم خير معين لفهم معنى "واقعيته"، كما أن مراعاة هذا التشريع فطرة الإنسان الذي سرعان ما يتسلل

إليه الملل والسلامة من الحياة، إذا كانت على وتبة واحدة – كما وقع للنصارى من ابتداع الرهبانية – ومراعاة ضعف الإنسان الذى تعرّيه نفائص وعيوب، وتميل به الأهواء والشهوات، من خلال تنوع تلك الشرائع مثال آخر للفهم الصحيح للواقعية في الشريعة الإسلامية.

أبرز مظاهر "الواقعية" في التشريع الإسلامي:

لا يمكن حصر مظاهر وملامح "الواقعية" في الشريعة الإسلامية في هذا المقال، لأنها في الحقيقة تحتاج إلى أكثر من كتاب ومجلد لشرحها واستقصائها، إلا أن ما لا يدرك كله لا يترك كله، فلا بأس بذكر بعض مظاهر هذه "الواقعية"، من خلال عدة نقاط:

1- ففي مجال الحلال والحرام لم تحرم الشريعة الإسلامية شيئاً يحتاج إليه الإنسان في واقع حياته، كما لم تبح له شيئاً يضره، ومن هنا أنكر القرآن من يحرم زينة الله التي أباح لعباده والطيبات فقال تعالى: {يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا مِنْ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرِبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُ الْمُسْرِفِينَ، قُلْ مَنْ حَرَمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيَّابَاتِ مِنَ الرِّزْقِ} الأعراف 31-32، مع مراعاة القصد، والاعتدال فيها، وعدم الإسراف في استعمالها.

2- وفي مجال تقدير أحوال الإنسان وظروفه المتقلبة في هذه الحياة، تظهر "واقعية" الشريعة الإسلامية من خلال تقديرها الضرورات - التي تعرض الإنسان وتضغط عليه - حق قدرها، فرخص الإسلام للمضطر تناول بعض المحرمات على قدر ما توجب الضرورة، ومن هنا جاءت القاعدة الفقهية المشهورة: "الضرورات تبيح المحظورات" والتي تستند في حجيتها إلى قول الله تعالى: {إِنَّمَا حَرَمَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغِ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} البقرة/173.

3- وفي مجال الزوج والأسرة تبدو "واقعية" الشريعة الإسلام بأجل صورها، من خلال مراعاتها قوة الدافع الجنسي عند الإنسان، فاعترفت بهذه الرغبة، ولم تهملها أو تتعالي عليها بدعوى التدين كما فعلت بعض الملل والنحل، إلا أنها وبنفس شرعت لإشباع هذه الرغبة طريقة شرعية نظيفة، من خلال شرعة "الزواج" التي تحافظ على كرامة الإنسان ونوعه، ولم تطلق هذه الشهوة دون أي ضابط كما فعلت المادية الغربية.

والحقيقة أن حديث ثلاثة الذين سألو عن عبادة النبي صلى الله عليه وسلم، ودارك النبي صلى الله عليه وسلم لأخطائهم في فهم حقيقة الإسلام، يعتبر النموذج الأمثل والصورة الأوضح لمعنى "الواقعية" في التشريع الإسلامي.

ففي الحديث الصحيح أنس بن مالك رضي الله عنه قال: جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم يسائلون عن عبادة النبي صلى الله عليه وسلم، فلما أخبروا كأنهم تقاولوها. فقالوا: وأين نحن من النبي صلى الله عليه وسلم قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. قال أحدهم: أما أنا فإني أصلى الليل أبداً. وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفتر. وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً. فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم فقال: أنتم الذين قلتم كذا وكذا أما والله إني لأخشاكم له وأتقاكم له لكي أصوم وأفتر وأصلى وأرقد وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني (4).

لقد شملت "واقعية" الشريعة الإسلامية - بالإضافة لمرااعاتها فطرته - كافة ظروف الإنسان، صغره وكبره، شبابه وشيخوخته، صحته ومرضه، غناه وفقره، علمه وجهره، تذكرة ونسيانه، عمد وخطأه، اختياره وإكراهه..... ولم تقتصر على حالة واحدة يتعرض لها الإنسان، لترتبط بعد ذلك لكل حالة من الأحكام ما يتتساب مع طبيعة الإنسان، ويتفق مع قدراته وطاقته.

هذا باختصار شديد جزء يسير من معنى "الواقعية" في الإسلام، وهو ما يؤكد عظمة هذا الدين، وصلاحية تطبيقه في كل زمان ومكان.

-
- (1) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة 2/107.
 - (2) علم الأخلاق لأرسو 1/177 ترجمة أحمد لطفي السيد.
 - (3) انظر كتاب: واقعية التشريع الإسلامي وآثارها: من ص 76-87 بتصريف.
 - (4) صحيح البخاري برقم 5063.

المسلم

المصادر: